American Board Linguistics and Literature Journal

مجلة البورد الأمريكي في اللغة والأدب

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../..../01/2024 Accepted on 18.../.../05/2024

دراسة في نظرية الإنسان عند الفلسفة الكونفوشيوسية

Research on Human Theory in Confucian Philosophy

تانغ شيومي

جامعة الدراسات الدولية بشيآن - جمهورية الصين الشعبية

Xi'an international studies University - Xi'an/ China

tangxuemei@xisu.edu.cn

المستخلص:

إذا فتحنا صفحات سجلات تاريخ الصين، سنرى بوضوح أن الفلسفة الكونفوشيوسية قد أثرت منذ آلاف السنيين - مع دخولها في كل بيت من البيوت – على أفكار الصينيين وأعمالهم ونظام حياتهم، ومع أن هناك أناسا يرغبون في أن يبحثوا عن حقيقة فكرتها في الإنسان، هنا فليس غرضنا أن ندرس كيفية تأثير نظرية الإنسان فحسب، بل يهمنا أن نعلم ماهية وجوهر الكونفوشيوسية في الإنسان من أجل التعريف على قدر تأثير هذه النظرية.

الكلمات المفتاحية:

نظرية الإنسان/ الفلسفة الكونفوشيوسية/الفلسفة الصينية القديمة

***Abstract** : If we turn to page of Chinese historical records, we will clearly see that, thousands of years ago, Confucian philosophy entered every family and affected the Chinese people's thought, work and life system. Although some people want to find the truth of their thoughts ,here, our purpose is not only to study how human theory is affected, but also we are interested in understanding what the essence of Confucian thought is on people to determine how much this theory has been affected.*

***Keywords**: Humanistic Theory/Confucian Philosophy/Ancient Chinese Philosophy*

I. مقـــــدمة:

ففي عصر الربيع والخريف (سنة770 ق.م - سنة476ق.م) ظهر الجدال حول طاعة إله السماء وطاعة الإنسان، وحول العلاقة بين الإله والإنسان. وهذا الجدال قد متّ إلى الفلسفة والسياسة بصلة وثيقة.

وقد ظهر في هذا العصر أيضا مدارس شتى تمتاز بآراء سياسية واضحة، مثل الكونفوشيوسية والطاوية، وليس من المستغرب أن نرى أن هذه المدارس ليست ديانة بالمعنى المعروف، بل هي مجموعة تعاليم وآراء فلسفية إنسانية يقوم أساسها على القواعد الأخلاقية والفضائل الطبيعية التي تؤيدها البراهين الحسية وتؤيدها العواطف النفسية. فقد بدأ

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

الأشراف في هذه المدارس يربطون آلهة السماء بأباطرة الأرض؛ فبهذا تكونت نظرية الإله تدريجيا، ولكن السلطة ذات النفوذ قد احتكرت حقوقا متصلة بإله السماء.

وكذلك قد ظهر في هذا العصر نظرة إلهية تدلّ على أن الأديان البدائية قد تطورت من الخرافات (كما شهدت الأساطير في الصين القديمة) إلى عبادة الآلهة، فدلّ هذا على وجود عبادة القدماء للقوى الخارقة للعادة، وخيالهم في قهر الطبيعة. فقد ساهمت المدارس الكونفوشيوسية في هذا المجال مساهمةً ما. فإن الفلسفة الكونفوشيوسية التي أسست على فكرة المروءة (رين) وفكرة الأخلاق والنفس والإنسان فجذبت كثيرا من الناس إلى دراستها والقبول بها في حياتهم الروحية. لذلك يرى الماديون أنها من الفلسفات، ويرى عوام الناس أنها من الأديان.

والكونفوشيوسية مذهب من المذاهب الفلسفية، وهي منسوبة إلى فيلسوف مشهور، وسياسيّ عظيم، ومتعصب شديدَ التعصب لنظام المجتمع العبودي، عاش في عصر الربيع والخريف، وقد ضحّى بحياته دفاعا عن النظام العبودي المتهدم، ألا وهو كونفوشيوس.

قبل أن ندخل في صميم الموضوع تدعو الضرورة إلى أن نعرف نبذة عن حياة كونفوشيوس، وهو كونغ تشيو (سنة551ق.م- سنة479ق.م) ولقب بجونغ ني، ولد في مدينة تشيويفو التابعة لإمارة "لو" المسّماة اليوم بمقاطعة "شاندونغ"، فمات أبوه وهو في الثالثة من العمر. وكان فقيرا وحقيرا، ولكنه مؤدب. وقد عمل في أوائل حياته خازنا في أحد المخازن وراعيا في أحد المراعي. وهو لم يجلس عند أستاذ معين، وقد حكي أنه درس الأدب من لاو تسي؛ وتعلّم الموسيقا من الأستاذ تشانغ هونغ؛ وتعلم عزف الآلات الموسيقية من الأستاذ شي شيانغ. وقد تتلْمذَ عليه عدد كبير من التلاميذ وألقى المحاضرات لهم، وكان حوله ثلاثة آلاف تلميذ، وكان بعد استقالته من الوظيفة يطوف ويتجول مع تلاميذه في أنحاء إمارة "لو". وكذلك قام في هذه الفترة بتدوين الكتب التراثية.

المعرفة عند كونفوشيوس أصل من أصول الحكمة والإدارة، وأما الكتب التي تمنح الحكمة وتمكن الإنسان من المعرفة وتجعله قادرا على تولية شؤون الناس في الصين فهي نوعان:

أ - الأصول الخمسة القديمة.

ب- الكتب الأربعة الملحقة.

وتعتبر هذه الكتبُ التراثَ الفكري الحقيقي للصين في مجال الفلسفة، والتاريخ، والأدب، والأخلاق. وكان كونفوشيوس مفكرا يميل إلى طبقة ملاّك العبيد حينذاك، وكان مؤسّسا لمدرسة الكونفوشيوسية، وقد صان النظام العبودي بما تأثر به من عقيدة طاعة القدر التقليدية ومن آراء سياسية محايدة. وقد صار"نبيا" في المجتمع الإقطاعي، فأثرت فكرته على كل المجالات في الحياة الروحية للصينيين. وفي حقيقة الأمر إن فلسفة كونفوشيوس مليئة بالتناقضات، وذلك لأنه عندما أراد

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

إنهاء الأزمة السياسية الاجتماعية في النظام العبودي دعا ضرورة إعادة "أدب أسرة تشو"، ولكنه لما رأى أن هذا الأدب قد فقد فعاليته في تنظيم المجتمع، ما لبث أن طرح فكرة الأخلاق التي تتركز حول المروءة، وأكد على إدراك النفس والمبادرة الذاتية، وجعل المروءة والحياة متصلة إحداهما بالأخرى. فقد أثرت فكرته هذه على الأجيال المتأخرة في مجالات عديدة، ومن أجل إزالة التناقضات بين الناس وفي الأمور الأخرى طرح فكرة الاعتدال.

وبفضل حاجة التعليم دوّن ونشر كثيرا من الكتب التراثية، ثم أدخل بعض أفكارها في مؤلفاته. فصارت فكرته في التعليم أفضلَ من حيث الضوابط لتربية الناس لدى الطبقة المسيطرة الإقطاعية، فلذا قدّسه الناس واعتبروه نبيا، وكانوا لا يعبدونه فقط، بل بنوا له أيضا معابد كثيرة في جميع أنحاء البلاد.

هنا وقد تناولتُ الفلسفة الكونفوشيوسية من أحد الأجانب الهامة لا غير أي النظرة إلى الإنسان.

II. النظرة إلى الإنسان عند الفلسفة الكونفوشيوسية

رأى كونفوشيوس أن الإنسان يجب عليه أولا أن يطيع والديه والأباطرة، وأن يعدل بين الآخرين ويرحمهم. وقد طرح فكرةَ طبقة الملاك النبلاء، حيث إن السلطان هو سلطان دائما والعبد هو عبد دائما، وهكذا الوالد والولد. وقد جعل هذا النظام أيضا أساسَ العلاقة بين أفراد الأسرة، فنقدم هنا مثالا في علاقة الوالد بولده، وذلك بأن يستر الولد على تصرّفات والده السيئة، وكذلك الوالد يستر على سرقة ولده، ومثل هذه المعاملات بينهما هي الخلق الحسن الفاضل, كما قال كونفوشيوس: "إن الوالد يستر على تصرفات ولده السيئة، وكذلك الولد عليه أن يستر على تصرفات والده السيئة، فبهذا يظهر العدل". وهكذا يتعامل السلطان والعبد فيجوز للسلطان أن يخطئ ولكن لا يجوز للعبد أن يخطئ، وذلك لأن شخص السلطان يناسب مسماه، وأن شخص العبد يناسب مسماه، فكل منهما في موقع معيّن لا يتجاوزه إلى غيره.

ورأى أن السبب الذي يؤدي إلى فساد المجتمع هو أن كل من ذكرناه من السلطان والعبد والوالد والولد قد لا يبقى في مستواه كما ينبغي.

ورأى أن علاقة الطبقات بين الناس في المجتمع العبودي معقولة، فقال: "إنما لا يتغير العقلاء في كونهم في الدرجة العليا والسفهاء في كونهم في الدركة السفلى، فيتغير كل شيء إلا العاقل والسفيه". "وإن كل من فوق الدرجة الوسطى يمكنه أن يحاور من في الدرجة العليا، وأما كل من في الدركة السفلى فلا يمكنه أن يحاور من في الدرجة العليا". ورأى أيضا: "أن العبقري في الدرجة العليا"، ومعنى ذلك أن في المجتمع نوعا من الناس، قد جاؤوا إلى هذه الدنيا حاملي العلم و المعرفة بدون مشقّة التعليم و التجربة، وهم الأشراف؛ وأن هناك أيضا آخرين من الناس قد ولدوا أمّيّن جاهلين لا يعلمون شيئا إلا بالتعليم والتجربة، فيختلف تعليمهم وتربيتهم باختلاف المعارف الموجودة فيهم عند الولادة.

وعلى هذا الأساس رأى كونفوشيوس أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طبقات: العليا، والوسطى، والسفلى، فيمكن لمن

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

في الطبقة العليا والوسطى أن يتلقى المعارف العالية العميقة؛ وأما الذين في الطبقة السفلى فلا يمكنهم أن يتلقوا هذه المعارف لأنهم للخدمة. كما قال: "يتعلم العاقل ليحب الناس، ويتعلم السفيه ليُستخدَم". معنى ذلك أن العاقل يستطيع أن يصلح بين الناس، وأما السفيه فدائما مع مثيله يعارض العاقل ويخالف الطريق المعتدل؛ والعاقل لا يتعصب في الجدال، بل يميل إلى السلم في المجتمع، ويتخذ الموقف الحيوي غير المتجمد، وأما السفيه فلا يفعل مثل ما يفعله العاقل؛ والعاقل يبدأ بالأول وينتهي بالآخر، وأما السفيه فلا أمانة له في قوله ولا في عمله؛ ويرى أن الرجل الخاص والعام والعاقل والسفيه قد خلقوا من أوّل ولادتهم.

ورأى كونفوشيوس أن العاقل والسفيه لا يستويان، وأن الذكر والأنثى لا يستويان، وأن الحر والعبد لا يستويان. وأن العاقل نفسه يتنور في المجتمع، وأما السفيه فنفسه سيئة. وأن العاقل يجعل فرح الآخرين فرحه، ونجاحهم نجاحه؛ وأما السفيه فيحب أن ينمّ بين الناس ويفتري عليهم، كما قال: "إنما يصعب على الإنسان أن يتعامل مع المرأة والسفيه".

وميّز كونفوشيوس بين الرجل الكامل الخلق والرجل الناقص الخلق وقال: "إن الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة، والرجل الناقص الخلق يطلب الرذيلة. والرجل الكامل يفكر في اجتناب الرذيلة وأداء الواجب، والرجل الناقص يفكر في كسب المنافع، والرجل الكامل واقف على الإصلاح، والرجل الناقص واقف على الإفساد". وحدد الرجل الفاضل في المجتمع فيقول: "الرجل الفاضل لا يتحيز ولا يتعصب".

وأما الذين جاءوا من بعده فرأوا أن لكل إنسان نفسين: نفسا حقيقية ونفسا طبيعية، إن النفس الحقيقية هي حسنة وكاملة، وهي تحتوي على المروءة والصدق والأدب والعقل؛ وأما الثانية فهي إما طيبة وإما سيئة، لذلك لا يخلو الإنسان السفيه من النفس الطيبة ولا يخلو الإنسان العاقل من النفس السيئة؛ وما دام الإنسان يتمسّك بنفس طيبة لا تخرج أفكاره وأقواله وأعماله من مقاييس الأخلاق، لا تزيد ولا تنقص.

وكما كان هناك نَفَس صافٍ ونَفَس عكرٌ، يرى أن نفْس الإنسان انقسمت إلى النفس الطيبة والنفس السيئة، فإذا كان الإنسان قد صفا نفَسه يكون نبيّا أو وليا، كأنّه الدرّ في الماء الصافي؛ وإذا كان الإنسان قد عكر نفَسه يكون سفيها أو عاصيا، كأنّه الدرّ في الماء العكر. لذلك إذا كان الإنسان قد زكّى نفسه وطهّر قلبه من الأوساخ كما يُصقَل الدرُّ في الماء العكر فسيتحول السفيه أو العاصي إلى نبي أو ولي، وقد يحدث التغير على الخلق، فإذا أصاب حدوث التغير فسيصبح الرجل السيّئ وليا كما أن الدر في الماء العكر إذا صقله فسيظهر جماله ورونقُه.

فإن كل ما ورد في كتب كونفوشيوس دلّ بوضوح على أن نظرته للإنسان تعود إلى الاعتراف بالطبقات، وأن الناس ليسوا في مستوى واحد رغم أنه يرى أن الإنسان مفطور على الخير، كما قال: "إن الناس يولدون خيرين متساوين بطبيعتهم، وكلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيا وفق ما يكسب من عادات." وذلك لأن معرفته بالإنسان ما زالت متأثرة

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

بالمجتمع الذي عاش فيه، وأن هذه المعرفة غير معقولة، لأن نفس الإنسان غير مطلقة، قد يرتكب الجرائم من له خلق حسن، وقد يعمل الخير من له خلق سيئ، وكذلك إن موقفه من احتقار المرأة غير معقول.

III. تطور النظرة إلى الإنسان عند الفلسفة الكونفوشيوسية

إن الكونفوشيوسيين لم يرضوا عن فلسفة كونفوشيوس التي تهتم بما يتعلق بحياة الإنسان فقط، بل بدأوا يدرسون أيضا علم المبدأ الكليّ، الأمر الذي أدّى إلى تغطية الكونفوشيوسية بلباس الدين. وقد أنشأ هذه المدرسة الفيلسوفُ تشو دون يي (سنة1017م – سنة1073م) على أساس فلسفة كونفوشيوس وبعض الأفكار من الفلسفة الطاوية، فيرى أن مبدأ العالم "تايجي"، وأنه ما لا شكل له ولا صورة، وسمّاه أيضا بـ "ما لانهاية له". ويرى أن كل الكائنات لا تخرج من العناصر الخمسة (المعدن والخشب والماء والنار والتراب) وأن هذه المبادئ لا تخرج من "يين" و"يانغ" (المؤنث والمذكر) وأن "يين" و"يانغ" لا يخرجان من "تايجي"، وأن "تايجي" هو مبدأ كل الكائنات، وأنه خالق كل شيء وأن ذاته عقلي. وكان "تايجي" إذا تحرك حدث منه "يانغ"، وإذا بلغت هذه الحركة إلى الغاية سكن، فعند السكون حدثت "يين"، وإذا بلغ السكون إلى الغاية رجع إلى الحركة، وهكذا أن الحركة والسكون كل منهما أصل للآخر.

ويرى أيضا أن الشيء إذا تحرك لا يسكن، وإذا سكن لا يتحرك مرة ثانية؛ وأما الإله فيكون في حركته سكون وفي سكونه حركة، يعني بالإله هنا "تايجي" الذي إذا تحرك حدث منه "يانغ" وإذا سكن حدث منه "يين". وإن "تايجي" هو أصل الكائنات، وليست في ذاته صفة السكون والحركة إلا في مبدئه الكلي، وهو الأول والآخر والحي والقيوم، وبيده المحيا، والممات، والحركات، والسكنات. وقال فيلسوف آخر يسمّى بتشو سي: "إن "يانغ" متحرك و"يين" ساكنة، وأما "تايجي" فليست في ذاته صفة الحركة والسكون إلا في مبدئه الكلي، فلا يُرى هذا المبدأ، بل يُدرك من حركة "يين" و"يانغ" فقط؛ فبمبدأ الحركة يتحرك فيحدث بها "يانغ"، وبمبدأ السكون يسكن فيحدث به"يين".

فمعنى القول إن ليس لـ "تايجي" حركة ولا سكون، ولكن لكون تضمّنه مبدأ الحركة والسكون، أصبح للهواء أيضا حركة وسكون؛ أما حركة الهواء والسكون فيترابطان ترابطا لا يتحرك بلا سكون ولا يسكن بلا حركة، فيكون في سكون "يين" جذر حركة "يانغ"، وفي حركة "يانغ" جذر "يين"، وباستمرار دوران الحركة والسكون خُلقت العناصر الخمسة والسماوات والأرض وما بينهما.

ويرى الكونفوشيوسيون أن "تايجي" هو المثل الأعلى لكل الكائنات، وأن تشكل هذه الكائنات وتطورها يرجع إلى "تايجي". وقد طرح هؤلاء الكونفوشيوسيون نظرية معرفة حقائق الأشياء بمراقبة مبادئها، ويرون أن هذه المعرفة لا تكون إلا بقلب الإنسان، ذلك لأن لكل شيء مبدأ فيعرف هذا المبدأ من ذلك الشيء نفسه، ثم يراقب مبدأ آخر غير معروف على أساس ذلك المبدأ الأول المعروف، حتى يبلغ الإنسان إلى غاية المبادئ.

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

ويرون أيضا أن معرفة مبدأ شيءٍ مَا هي الخطوة الأولى للمعرفة، وأن "تايجي" هو مبدأ كلّي تخضع له كل المخلوقات، وإذا عرف الإنسان هذا المبدأ الكلي انشرح صدره.

فإذن المراقبة تشمل على كل المبادئ من "تايجي" إلى ورقة عشب أو شجرة واحدة، وأن غاية المراقبة هي لمعرفة مبادئ الأشياء، والتي لا تنحصر في الأشياء الموجودة في عالم الطبيعة فقط، بل يشمل على مبادئ الأخلاق أيضا، ويعني بذلك تهذيب النفس وتقوية الأخلاق.

IV. خـــاتمة:

هذا وقد عرفنا أن كانت الفلسفة الكونفوشيوسية وضعية وليست وحْياً أو ديانة؛ ولم يكن كونفوشيوس نبيا من الأنبياء، بل هو عالم ومصلح وضع القوانين والنظام الذي يتعلق بالحياة الإنسانية. وكانت فلسفته لخدمة طبقات الحكام ولإفادتهم، ومع أن كلامه يمتاز بالإيجاز والدقة، ولكنه لا يمكن أن يُتوَّج بالوحي. وأن فلسفته غالبا لها علاقة مع الأخلاق وتزكية النفس للإنسان.

الهوامش:

01 . شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، الطبعة الأولى، 1982م، الجزء الأول، ص 27.

02. المرجع السابق، الجزء الأول، ص 28.

03. اسم المقاطعة، تقع في مجرى النهر الأصفر الأسفل في شرق الصين. انظر: المعجم المحيط الصيني، ص 784.

المعجم المحيط الصيني، ص 1119.

04. المعجم المحيط الصيني، ص 1119.

05. شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، ص 70.

06. هي: كتاب الوثائق التاريخية، وكتاب القصائد والشعر، وكتاب التبدلات، وكتاب القداس والحفلات، وحولية الخريف والربيع.

07. هي: الحوار، والمعرفة الكبرى، والاعتدال، وآثار منغ تسي.

08. كونفوشيوس، الحوار، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الأولى، سنة 2001م، ص 49.

09. المصدر السابق، ص 44-69.

10. المصدر السابق، ص 173.

11. كونفوشيوس، الحوار، ص 128.

VOl 1. N 1. 2024/112 Manuscript received on 02.../....01/2024 Accepted on 18.../...05/2024

12. كونفوشيوس، الحوار، ص115.

13. يعني الرجل الكامل الخلق والأدب والواسع الصدر.

14. كونفوشيوس، الحوار، ص 221.

15. المصدر السابق، ص 69.

16. المصدر السابق، ص 55-56.

17. المصدر السابق، ص 63.

18. الإسلام في الصين، تلخيص الأوراق التي قدمت في الاجتماع الإسلامي من خمس مقاطعة في شمال غربي الصين، دار الطباعة الشعبية بنينغشيا، الطبعة الأولى، سنة1982م، ص 269.

19. المرجع السابق، ص 270.

20. وانغ سينغ كانغ، شرح الحوار، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الثالثة، سنة 2003م، ص 164.

21. المعجم المحيط الصيني، ص 642.

22. تشو سي (سنة1130م – سنة1200م) هو فيلسوف وعالم تربوي في عصر أسرة "سونغ" الجنوبية الملكية، وقد جاء بـ "فكرة إبقاء النظام السماوي وترك الشهوات النفسية".

23. الإسلام في الصين، تلخيص الأوراق التي قدمت في الاجتماع الإسلامي من خمس مقاطعة في شمال غربي الصين، ص259-260.

24. كونفوشيوس، المعرفة الكبرى، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الأولى، سنة 2001م، فصل استقصاء مبادئ الأشياء.

26. الإسلام في الصين، تلخيص الأوراق التي قدمت في الاجتماع الإسلامي من خمس مقاطعة في شمال غربي الصين، ص 264.

27. الإسلام في الصين، تلخيص الأوراق التي قدمت في الاجتماع الإسلامي من خمس مقاطعة في شمال غربي الصين، ص 264.

28. كونفوشيوس، الحوار، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الأولى، سنة 2001م.

29. شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، الطبعة الأولى، 1982م، الجزء الأول.

30. الإسلام في الصين، تلخيص الأوراق التي قدمت في الاجتماع الإسلامي من خمس مقاطعة في شمال غربي الصين، دار الطباعة الشعبية بنينغشيا، الطبعة الأولى، سنة1982م.